

## الفصل الثاني

### جبل عامل

#### بين التشكُّل والاحتلال

- ١- عُمران جبل عامل في عصر المقدسي .
- ٢- عُمرانه في عصر ابن جبَّير .
- ٣- عن الجُملة السكَّانية للأردن و فلسطين .
- ٤- عُمران جبل عامل وعلاقته بالاجتياح الصليبي .
- ٥- عن جبل عامل تحت الاحتلال .
- ٦- خُلاصة الفصل .

## جبل عامل

### بين التشكُّل والاحتلال

#### ١ - عُمران جبل عامل في عصر المقدسي ( القرن الرابع هـ / العاشر م )

إن أول إشارة إلى عُمران جبل عامل في الإسلام وصلتنا من القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد. يعود الفضل فيها إلى المقدسي، محمد بن أبي بكر البناء. في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»، الذي كان مشغولاً بتصنيفه عام ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م<sup>١</sup>. حيث يتحدث عن بلدة "قَدَس" فيصفها بأنها «مدينة صغيرة على سفح جبل، كثيرة الخير. رستاقها جبل عامل»<sup>١</sup>. ثم يعطف الكلام إلى جبل عامل ليقول: «جبل عامل ذو قرى نفيسة، وأعشاب وثمار وزيتون والمطر يسقي زروعهم. يُطلّ على البحر. ويتصل بجبل لبنان»<sup>٢</sup>. وهو نصّ نادر وثمين، لأنه أول ما وردنا عن عُمرانه في فترة مبكرة من تاريخه مجهولة عندنا تماماً.

والمقدسي جغرافي رحّالة. بدأ حياته العملية تاجراً يجوب البلاد والأقطار في طلب الرزق. ثم انقطع إلى تتبع أحوال البلدان وأهلها، فطاف أكثر دار الإسلام. وأودع خلاصة ملاحظاته كتابه المذكور «الذي جاء مثلاً يُحتذى في الكتابة الجغرافية المتقنة»<sup>٣</sup>. كما وُصف بأنه «آخر الجغرافيين العظام الذين ساروا على منهج مدرسة البلخي»<sup>٤</sup>. يعني أحمد بن سهل البلخي (ت: ٣٢٢ هـ / ٩٣٣ م)، مُصنّف كتاب «المسالك والممالك». وبالإضافة إلى هاتين الشهادتين، فقد لاحظت أن أثنى الملاحظات الجغرافية في «معجم البلدان» لياقوت مُقتبسةً بنصها غالباً عن المقدسي في كتابه ذلك. كل هذا، فضلاً عن أنه، أي المقدسي، عرف المنطقة معرفة مباشرة وجيدة<sup>٥</sup>.

١. المقدسي: «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» ط. ليدن ١٩٠٦/٩.

٢. نفسه / ١٦١-٦٢.

٣. د. شاكر خصباك: «في الجغرافية العربية» ط. بيروت ١٩٨٨/٢٨٣.

٤. عمر رضا كحالة: «التاريخ والجغرافية في العصور الإسلامية» ط. دمشق ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م / ٢٢٤.

٥. أحسن التقاسيم / ١٨٨.

واستناداً إلى السيد الأمين في كتابه «خطط جبل عامل»<sup>٦</sup> ، وإلى فايز الرئيس في «القرى الجنوبية السبعة»<sup>٧</sup> ، فإن "قدس" في الحولة، عند أطراف جبل عامل الجنوبية الشرقية. تبعد ستة كيلو مترات تقريباً عن بحيرة الحولة التي ردمها اليهود بعد الاحتلال، كما هجروا أهلها. وعامتهم يُقيمون اليوم في مُختلف أنحاء لبنان. وكانت قبل الاحتلال تابعة إدارياً لقضاء صور. أهم ما في نص المقدسي، بالنسبة لما نبحت عنه الآن، تلك الإشارة إلى أن جبل عامل كان في زمن النص معموراً عُمراً ما "ذو قرى نفيسة". يُعزّزها قوله: «رستاقها جبل عامل». والرستاق، ويُقال أيضاً الرزداق، هو من الفارسي المُعرب «موضع فيه مُدرع وقرى»<sup>٨</sup> يُقابلة في العربية: السواد<sup>٩</sup>. وكلتا الكلمتين بمعنى. لكن في العبارة الثانية إشارة غير خفية على العارف إلى أنه كان لـ "قدس" موضع الحاضرة من قرى أقل شأنًا. تُطيف بها أو تقع في نطاقها إدارياً أو إنتاجياً. وإذا علمنا أن "قدس" التي وصفها المقدسي بأنها "مدينة صغيرة"، لم تكن إلا بلدة لا يزيد عديد سكانها عن الألف نسمة، إستناداً إلى بعض المقارنات الواردة في المصدر نفسه، صح لنا أن نتصور أن تلك الـ "قرى النفيسة" لم تكن أكثر من قرى صغيرة أشبه بالمزارع. يعيش أهلها عليها عيشة زراعية بسيطة على أرضهم الفقيرة. مُعتمدين ما يُسمى اليوم بالزراعة البعلية، أي التي تستقي ممّا يذخره الثرى من ماء المطر «والمطر يسقي زروعهم». وهي نفسها الطريقة التي ما تزال غالبية حتى اليوم. بالإضافة إلى ما جدّ من استنباط الماء من الأعماق.

ثم إن المقدسي يعود إلى ذكر جبل عامل في الفصل التالي، تحت عنوان «جبل شؤون هذا الإقليم». على المنهج الفريد والممتاز الذي التزم به في كتابه. بأن يتحدث أول عن الإقليم وما فيه من كور، ثم ما في هذه من بلدان. ثم يتبع ذلك فصلاً مستقلاً يستوفي فيه صفات الإقليم نفسه، من حيث المناخ، والمسافات بين بلدانه وقراه، وإنتاج كل منها «إرتفاعها». وهذا أقرب إلى ما نسميه اليوم بالجغرافيا الإقتصادية.

ما يُحرّك انتباهنا هنا، أنه إذ يأتي على إنتاج «إرتفاع» كل بلد من الشام كله، نراه لا يذكر لجبل عامل إلا العسل «وخير العسل ما رعى السعتر بإيلياً وجبل

٦. ص / ٢٣٥ - ٣٦.

٧. «القرى الجنوبية السبعة» ط. بيروت، مؤسسة الرسالة، لات / ٣٦.

٨. إبراهيم مذكور وآخرون: «المعجم الوسيط» ط. إيران ١٤٠٨ هـ / ٣٤١.

٩. راجع المادة في «لسان العرب» لابن منظور.

عامل»<sup>١٠</sup>. هذه الملاحظة تدعونا إلى التساؤل عن «الأعشاب والشمار والزيتون» التي سبق له أن قال إنها من زروعه. ونحن نفهم من هذا أنه، وإن كان فيه ما ذكره من مختلف الزروع، إلا أنها في حال مُتدَنَّ من حيث كميّة الإنتاج، بحيث إنّها لا تخرج منه، ليصحّ فيها أنها «ارتفاع». وذلك أمر مفهوم جداً بالقياس إلى ما نعرفه من فقر تربته وشحّ المياه فيه.

ثم إنه إذ يعرض للمسافات بين بلدان الإقليم، عرضاً يُدكّرنا بالدليل السياحي اليوم، نراه لا يذكر من جبل عامل سوى قريتين، هما مجدل سلّم وكفر كيلا<sup>١١</sup>. وهما قريتان مُتقاربتان جغرافياً، معروفة كلّ منهما بالاسم نفسه حتى اليوم. تقعان في أعالي الجبل. يظهر من اسميهما الأراميين أنّهما قديمتان. ونفهم من هذه الملاحظة أيضاً أنّهما كانتا في ذلك الأوان أكبر ما فيه من تجمّعات سكنية. لأنّ غرض الكاتب العارف هنا مُتعلّق ومتوقّف على الاستيفاء التام. ولو كان فيه قرى أخرى بالأهمية نفسها أو أكثر، لكان حريّاً به أن يأتي على ذكرها. والنتيجة أن سكوت المؤرّخ هنا دليل على النفي، لأنّه في مقام البيان التام. لكنّ الجمع بين هذه النتيجة الواضحة وبين قوله الآنف الذكر، أعني قوله إنّ جبل عامل رستاق "قدّس"، وهو طبعاً لا يريد بالرستاق صرف قريتين، يقتضي أن تصوّر أنّ باقي المراكز التي كانت مأهولة من الجبل كانت مزارع لا شأن لها بحيث تستحقّ الذكر. وذلك جرياً على قاعدة أصالة النص ما لم يقم دليل على العكس.

يؤيّد مُجمّل هذه النتيجة نص يرد عنده عرضاً. مُتيحاً لنا دون أن يقصد إطلالة على الوضع السكاني في جبل عامل في زمانه. سنرى بعد التحليل أنّها فريدة.

يقول:

«جبل صدّيقا بين صور وقدس وبانياس وصيدا. عنده مسجده موسم يوم النصف من شعبان. يجتمع إليه خلق كثير من هذه المدن. ويحضره خليفة السلطان»

«واتفق وقت كنت بهذه الناحية يوم الجمعة، النصف من شعبان. فأتاني القاضي أبو القاسم بن العباس حتى خطبهم بهم. فبعثتهم في الخطبة على عمارة ذلك المسجد ففعلوا وبنوا له منبراً»<sup>١٢</sup>.

١٠. أحسن التقاسيم / ١٨٤.

١١. نفسه / ١٨٨.

١٢. أيضاً / ١٨٨.

واستناداً أيضاً إلى السيد الأمين، وهو الخبير وابن المنطقة، فإن قرية صديق اليوم « قرية خربة قُرب تبنين من شرقيها. على رأس جبل. فيها قبر عليه قبة. يُعرف صاحبها بصديق، وبه سُميت القرية. وفيه مسجد ومحرابه باق»<sup>١٣</sup>.

ثم إن الجمع بين النصين، نص المقدسي ونص السيد الأمين، يُظهر لنا أن القرية الدارسة كانت قد مُصرت بعد القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد. لأن المقدسي يُحدثنا عن صرف جبل وقبر عليه قبة، ولا شيء سوى ذلك. ولو كان ثم قرية لما أغفل ذكرها. ولما قصر كلامه على المشهد. وهو البلداني المُعلق النفس بتتبع البلدان وأحوالها. وليس في هذا الاستنتاج ما يفاجتنا. فنحن نعرف أن كثيراً من التجمعات السكانية تنشأ، في جبل عامل كما في غيره، حول معالم ذات قدسية دينية. فضلاً عن أنه يتناسب ويندرج في نظريتنا عن التكوين السكاني لجبل عامل. وأنه واحد من الآثار الباقية للحروب الصليبية. وهي النظرية التي سنخلص لها بعد قليل. فلتكن هذه الإشارة تهيئة ساق إليها الحديث.

بالمزيد من التأمل في نص المقدسي نكتشف أمرين في غاية الأهمية بالنسبة لما نبحت عنه،

هما:

**- الأول:** أن حضور الموسم هم «خلق كثير من هذه المُدن». و «هذه المُدن»، بدلالة السياق، هي صور و قدس وبانياس وصيدا. ولا ذكر لأهل جبل عامل سوى أهل حاضرتين من أطرافه. وعلى كل حال فقد ذُكرتا في سياق آخر. ولو أنهم كانوا حضوراً له ذكر لما شدد النص وحدد ذلك التحديد الدقيق. وإن موسماً يكون له من الأهمية عند أهل منطقة شاسعة، تمتد من صيدا إلى قدس، ما يجذب مشاركين يتجشّمون مشقة السفر لأيام، ثم لا يكون لأهل الجبل الأذنين، على فرض وجود يُذكر منهم، أدنى ذكر، مع أن الكاتب الخبير في مقام البيان، للدليل قوي على أنهم لم يكونوا هم أنفسهم شيئاً مذكوراً.

**- الثاني:** إن الموسم لم يكن ممّا درج الشيعة على إحيائه. ولا يحمل الصبغة الشيعية المميزة التي نعرفها جيداً. كما أن الحضور الرسمي «يحضره خليفة السلطان» فضلاً عن القاضي وخطيب المناسبة، الذي كان المقدسي نفسه، يحمل الدلالة نفسها. وتفسير ذلك ينطوي على احتمالات

عديدة. لاتساعدنا المعلومات المتوفرة عن أوضاع الشيعة في ذلك الأوان، وعن مستوى نضج الممارسة الشيعية الدينية، على القطع بشأنها. لكن الحد الأدنى من الدلالة يتناسب ويؤيد ما استنتجناه في الملاحظة الأولى.

من مجمل هذا التحليل نستنتج أن جبل عامل في الربع الأخير من القرن الرابع للهجرة / الربع الأخير من القرن العاشر للميلاد لم يكن، من حيث عديد سكانه وهويته المذهبية، على الصفة التي دخل بها التاريخ. والأرجح أن عمرانه كان يتمثل في قرى متناثرة أشبه بالمزارع. وأن نسبة السكان إلى مساحة الأرض كانت في حدود دنيا.

إن صح ذلك، وكل ما عندنا يدل على أنه صحيح، فإنه يتناسب وما نعرفه عن عمران المنطقة الشامية بعد دخولها في دار الإسلام. فنحن نعرف أن المسلمين الذين نزلوا المنطقة، بعد أن جلا عنها غالب أهلها، آثروا سكنى الأماكن التي يسهل فيها العيش ويطيب. من سهول داخلية خصبة وأمنة أو سواحل دافئة. فضلاً عما اقتضته شؤون الدفاع من إنشاء مراكز عسكرية<sup>١٤</sup> ولذلك تأخر عمران جباله. حتى ما كان عامراً منها قبل الفتح. والحقيقة أن عمران ما عمر منها فيما بعد قد حصل على أثر وبسبب أحداث عنيفة. أجبرت الناس على ترك أماكن سكنهم العادية والأثيرة. ولكل من هذه الجبال وعمرانه قصة. تخرج بنا روايتها عن عمود البحث. لكننا نشير على سبيل المثال، إلى أن جبل لبنان، وهو من أيسر جبال المنطقة عيشاً، ظلّ زمناً طويلاً من بعد الفتح موطناً للزاهدين والمُتقطعين عن الخلق<sup>١٥</sup> وبهذه الصفة دخل اللغة الصوفية، لدى عدد من كبار شعراء العرفان والحب الإلهي، رمزاً للتنسك والانقطاع والحياة الخالصة لعبادة الله. وقد رجحنا في بحث سابق، أن عمران، ذلك العمران الذي رصدناه أوائل القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر للميلاد بمناسبة فتوح كسروان، لم يحصل إلا بعد و بسبب الهجرة الكثيفة لأهل طرابلس إليه، بعد سقوطها بيد الصليبيين عام ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م<sup>١٦</sup>.

١٤. للتوثيق، وأيضاً للتوسّع في هذه النقطة الهامة والمتعددة الوجوه، يُراجع: الدكتور صالح العلي: «إمتداد العرب في صدر الإسلام» ط. بيروت، مؤسسة الرسالة ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م. الفصل المُخصص لبلاد الشام.

١٥. أحسن التقاسيم / ١٨٨-٨٩.

١٦. جعفر المهاجر: «التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسورية» ط. بيروت ١٩٩٢ م / ١٢٧ وما بعدها.

## ٢- عمران " جبل عامل " في عصر ابن جبير (القرن السادس هـ/ الثاني عشر م)

بعد قرنين وبضع سنين من زمان تلك الصورة، التي استخرجنا عناصرها من نصوص المقدسي . سنُفاجأ بأخرى مختلفة تمام الاختلاف لجبل عامل استفدنا عناصرها من الرحالة ابن جبير، محمد بن أحمد الكناني (٥٣٩-٦١٤ هـ / ١١٤٤-١٢١٧ م)، في رحلته المشهورة . وهو كان قد اجتازه من هونين باتجاه الساحل عند عكّا . ما بين نهار السبت ٧ جمادى الآخرة ٥٧٩ هـ / ١٥ أيلول ١١٨٣ م، ونهار الاثنين التالي . أي في يومين وبعض يوم . ومع ذلك فإن ما سجله ثمين جداً من حيث فرادته وغناه . وها نحن نقتبس موضع الأهمية منه :

«فرحلنا عنها [أي عن بانياس] عشيَّ يوم السبت المذكور إلى قرية تُعرف بالميسية، بمقربة من حصن الإفرنج المذكور [يعني حصن هونين] فكان مبيتنا بها . ثم رحلنا منها يوم الأحد سحرا . واجتازنا في طريقنا بين هونين وتبينن بوادٍ مُلتف الشجر . وأكثر شجره الرند . بعيد العمق، كأنه الخندق السحيق المهوى . تلتقي حافتاه، ويتعلق بالسماء أعلاه . يُعرف بالأسطبل . لو ولجته العساكر لغابت فيه . لا منجى ولا مجال لسالكه من يد الطالب له . المهبط والمطلع إليه عقبتان كؤودتان . فعجبنا من أمر ذلك المكان، فأجزناه ومشينا عنه يسيراً وانتهينا إلى حصن كبير من حصون الإفرنج يُعرف بتبينن . وهي موضع تمكيس القوافل، وصاحبته خنزيرة تُعرف بالملكة . وهي أم الملك الخنزير صاحب عكّة دمرها الله . فكان مبيتنا أسفل ذلك الحصن . ومكّس الناس تمكيساً غير مُستوفى . والضريبة فيه دينار وقيراط من الدنانير الصوريّة» .

«ورحلنا عن تبينن دمرها الله سحر يوم الاثنين . وطريقنا كله على ضياع مُتصلة وعمائر مُنتظمة . سكانها كلهم مسلمون . وهم مع الإفرنج على حال ترفيه نعوذ بالله من الفتنة . وذلك أنهم يؤدّون لهم نصف الغلّة عند أوان ضمّها . وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط . ولا يعترضونهم في غير ذلك . ولهم على ثمر الشجر ضريبة معلومة يؤدّونها أيضا . ومساكنهم بأيديهم . وجميع أحوالهم متروكة لهم . وكل ما بأيدي الإفرنج من المدن بساحل الشام على هذا السبيل . رساتيقهم كلها للمسلمين، وهي القرى والضياع . وقد أشربت الفتنة قلوبهم، لما يبصرون عليه إخوانهم من أهل رساتيق المسلمين على ضد أحوالهم من الترفيه

والرفق . وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين ، أن يشتكي الصنف الإسلامي جور أخيه ، ويحمد سيرة ضده المالك له من الإفرنج ويأنس ببعده .<sup>١٧</sup>

هذه صورة فريدة لأحوال جبل عامل وأهله تحت الاحتلال الصليبي ، سجّلها ابن جُبَيْر بعد سقوط الجبل بثمانية عقود . وهي ، كما قدّمنا ، ثمينة من حيث إنها تصف حالة العمران . وتقف بنا على بعض وجوه الحياة والإنتاج والعلاقة مع المحتلّ . ممّا لا نجدُه عند أحد سواه .

ويؤخذ من كلام ابن جُبَيْر أنه اجتاز الجبل من طرفه الجنوبي الشرقي ، من هونين باتجاه عكا ، في «قافلة كبيرة من التجار المسافرين بالسلع»<sup>١٨</sup> . والطريق الذي سلكه كان الطريق الموصل بين الداخل والميناء الرئيسي على الساحل يومذاك . وقد قال عن عكا إنها «قاعدة الإفرنج بالشام . ومحطّ الجوّاري المنشآت في البحر كالأعلام»<sup>١٩</sup> . وكان ذلك الطريق جزءاً من شبكة الطُرق الداخليّة الكثيفة التي كانت تربط بين جبل عامل و فلسطين . وظلّت عاملة في الاتجاهين حتى الأمس القريب . إلى أن قضت عليها التبدّلات السياسيّة الناشئة من الاحتلال اليهودي . إذن فهو لم يعرف قلب جبل عامل . وهذا نقص آخر يُضاف إلى المدّة القصيرة التي قضّاها فيما عرفه منه وهو يجتازه مسرعاً .

ولقد كانت قلعة تبنين ، التي قضى ابن جُبَيْر أسفلها ليلة الاثنين التاسع من جمادى الآخرة / الثامن عشر من أيلول ، مركز الأمير الصليبي الحاكم لها وللمنطقة التي وصفها بأنها «نغر بلاد المسلمين»<sup>٢٠</sup> . وكان حاكم تبنين يأتي في الدرجة الثالثة بعد الملك ، ملك بيت المقدس ، الذي يترأس الهرم الإقطاعي . وتتألف أملاكه من ثلاثة مُدن رئيسة هي بيت المقدس وعكا و نابلس . يليه أربعة من كبار الأمراء ، أشبه بالدوقات في الغرب الأوروبي . هم أمراء يافا والجليل وصيدا والأردن . بعدهم تأتي مجموعة من الأمراء ، الذين يحكمون بقيّة مُدن المملكة وحصونها الرئيسيّة ، وعددهم اثنا عشر أميراً . من أكثرهم أهميّة أمير تبنين<sup>٢١</sup> . وقد قال ابن جُبَيْر : إن قلعة

١٧ . «الرحلة» ط . بيروت ، دار التراث ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م / ٢٧٤ - ٧٥ .

١٨ . نفسه / ٢٧١ .

١٩ . أيضاً / ٢٧٦ .

٢٠ . أيضاً / ٢٧٣ .

٢١ . سعيد عاشور : «الحركة الصليبيّة» ، ط . مصر ، مكتبة الأنجلو الأميركيّة ١٩٦٣ : ١ / ٤٧٩ .

تبنين وما والاها كانت يوم مرّ بها بحكم والده أمير عكا . ولم يذكر ذلك أحد سواه من المؤرخين المسلمين في حدود ما بحثنا .

إن أكثر ما أتناه به ابن جبّير أهميّة بالنسبة لموضوعنا هو قوله ، إنه مذرّحل عن تبنين كان طريقه كله «على ضياع متّصلة وعمائر متّظمة ، سكانها كلهم مسلمون» . وهو نص لا ينقصه الوضوح على مبلغ العمران الذي صار إليه هذا الجزء من جبل عامل على الأقلّ . إذا نحن قارناه بالصورة التي خرجنا بها من دراسة نصوص المقدسي ، التي ترجع إلى ما قبل سحابة قرنين من الزمان ، لرأينا وكأن طفرة سكانية قد حصلت فيه ، نالت وضعه السكاني والتنموي معا . أشار إليهما ابن جبّير بعبارته التي اقتبسناها مرتين عنه حتى الآن . ثم بوصفه لنمط العلاقات التي كانت قائمة بين السكان وسلطات الاحتلال . التي أخذت عناصرها من أنهم إقطاعيين / مُحْتَلِّين . يُقاسمون المزارعين إنتاجهم الزراعي بنصف الغلّة عند أوان ضمّها ، وضريبة معلومة على الأشجار المثمرة . وهذا إجراء إقطاعي نموذجي . بالإضافة إلى جزية على الرأس . وهذا من سلّطة الاحتلال إجراء عسكري-سلطوي . ومع ذلك فإن ما يبقى بيد المزارعين كان ، ولابدّ ، يقوم بأودهم بدرجة ما . بل ويكفي لرفد ومتابعة الحالة التنمويّة ، التي نجح ابن جبّير في وصفها بأوجز عبارة . ضرورة أنه في التنمية لا يكفي إنتاج حالة متّقدمة . بل لا بدّ من متابعتها ورعايتها وإلّا انهارت . وعلى كل حال ، فإن ما وصفه له موضوعه إذ لا مفاصلة بدون ما يجري التقاسم عليه . فضلاً عن عبارته البالغة الإيحاء ، التي ختم بها مطالعته عن جبل عامل وأهله : «لأنهم [أي أهل جبل عامل] على ضدّ أحوالهم [أي أهل رساتيق المسلمين] من الترفيه والرّفق» .

أين هذه الصورة الواضحة الغنيّة ، التي استقاها الرحّالة عفواً ودون جُهد ، وهو يجتاز جبل عامل في يومين ، من تلك الصورة الفقيرة التي جُهدنا في لمّ عناصرها من لوازم وإشارات كلام المقدسي؟ والمفروض والمؤكّد أن هذا أعرف من صاحبه بكثير بموضوع كلامه .

وأين هاتيك «الضياع المتّصلة والعمائر المتّظمة» من حالة الخواء وشبه اليباب التي خرجنا بها من تحليل كلام المقدسي؟

ثم أين الغلّة والأشجار المثمرة ، التي وإن كان المحتلّ يُقاسم عليها أهلها ، لكنهم كانوا على الأقلّ يزرعونها ويحصّدونها ويجنونها ، من تلك الحالة الإنتاجيّة العجفاء البائسة . التي لم يجد

المقدسي عليها شاهداً سوى العسل الذي يرعى السعتر؟ مع أنه كان، كما عرفنا، معنياً كل العناية بذكر إنتاج كل بلد من البلدان التي يعرض لها.

أعتقد أن بوسعنا أن نقول في الجواب، دونما كبير تأمل وإعمال فكر، إن أمراً ما قد حصل لجبل عامل بين القرنين الرابع والسادس للهجرة / العاشر والثاني عشر للميلاد. علينا أن نضعه موضعه الملائم في سياق. فالتاريخ هو سلسلة منطقية. لكن قبل المحاولة لابدلنا من أن نُحدّد السؤال بشكل آين. فالسؤال المُحدّد هو نصف الطريق إلى الجواب الصحيح. وذلك يقتضي الوقوف على أمرين.

- **الأمر الأول:** من المؤكّد أن ما وصفه ابن جبّير لم يكن ابن يومه. بل كان واقعاً مؤسساً راسخاً. اقتضى زمناً وعمل أجيال. وعليه فإذا كان الفارق الزمني بين نصّي المقدسي وابن جبّير قرنين وبضع سنين قمرية (٣٧٥-٥٧٩هـ)، فإن هذا لا يعني أن الفارق هو نفسه بين موضوعي نصيهما وما أفاده. وعليه فيمكننا، بكامل الثقة ودون أدنى حرج، أن نقلّص الفارق بين الموضوعين بضع عقود من السنين. فنقول، إن تكامل تلك الطفرة السكانية والتنموية يرجع إلى أواسط القرن السادس للهجرة / الثاني عشر للميلاد على نحو التقريب.

- **الثاني:** ممّا لا ريب فيه أن ما وصفه ابن جبّير، مقارنةً بما أخذناه عن المقدسي، يفوق بكثير معدّلات الزيادة السكانية الطبيعية، وأيضاً معدّلات التنمية العادية. خصوصاً إذا أخذنا بالحسبان ما نعرفه عن فقر الأرض العامليّة وشحّ مياهها. وما خلصنا إليه في خواتيم القسم السابق، من أن نسبة السكان إلى مساحة الأرض كانت في حدود دُنيا.

إذن، فإن من غير المعقول أن ينتقل جبل عامل في سحابة قرن ونصف، بإمكانات نموه وتنميته الذاتية، من حالة شبه الخواء إلى حالة الامتلاء السكاني، ومن حالة الإنتاج البرّي إلى حالة الغلال والثمار. وإذن أيضاً فلا محيص لنا عن أن نفترض عاملاً خارجياً، دخل مجرى الأحداث وأدّى إلى نقله من حال إلى حال.

أظن أن هذا يُحدّد السؤال، بحيث يمكن، أو يجب، أن نصوغه على النحو التالي: ما الذي حدث خلال القرن السادس للهجرة / الثاني عشر للميلاد، فنقل جبل عامل من حال إلى حال، وبدأ سلسلة من التطور المتعاقب الحلقات، بعضها ممّا قرأناه وعرفناه، وبعضها الثاني ممّا نسعى إليه في هذا الفصل. مُستمدّين العون من مالك العون؟

لسنا بحاجة إلى الذهاب بعيداً بحثاً عن الجواب . إنه حتماً في الحدث الأبرز والأبعد أثراً في تلك الفترة . أعني الغزو فالاحتلال الصليبي ، الذي كان لمدة قرنين العامل الأول في جملة الأحوال السياسية والعمرانية والسكانية ، في منطقة واسعة مركزها مدينة القدس . التي كانت الهدف الأول المعلن للغزو . بحيث يمتنع أن نتصورَ أمراً كبيراً يحدث ، أو تبدأ أسبابه وصورته ، في تلك المنطقة ، دون أن يكون على علاقة ما بهما أو بأحدهما بدرجة أو بأخرى .

ولقد جاء دخول الصليبيين عاملاً تاريخياً في الغاية من العنف . خلط الوضع السكاني لمنطقة واسعة كانت مزدهرة آمنة مطمئنة . وأعاد توزيعه من جديد . إذن ، فمن المفهوم أن نراها من بعده على غير ماكانت عليه من قبله . وبيان العلاقة بين هذا العامل ، بياناً واضحاً وعلى قدر كافٍ من التفصيل ، وبين ما انتهى إليه أمر جبل عامل ، وضمننا تفسير تلك الطفرة السكانية ، يستدعي أول الإلمام بما كانت عليه من قبله .

### ٣- عن الجملة السكانية للأردن وفلسطين قبل الصليبيين

مثل كل الشام بعد الانتشار الإسلامي ، كان الأردن وفلسطين مصباً لهجرات كبيرة قادمة من الجنوب . لكن الأردن وبعض فلسطين خاصة كانا مصباً لهجرات خرجت من العراق . بعد سقوط المشروع السياسي الذي حمل لواءه الإمام علي ومن بعده الإمام الحسن عليهما السلام . ولقد ساهمت في ذلك المشروع قوى قبلية كبيرة . أهمها على الإطلاق همدان ثم ربيعة ومذحج . الأمر الذي جعل من الكوفة ، ولمدة طويلة من بعد ، أهم وأكبر تجمع شعبي في العالم الإسلامي . فلما سقط المشروع الذي تجمعوا من أجله ، انعكست الحركة التي جذبتهم وانفرط ذلك النظام . وبدؤوا يتركون المدينة المهزومة . ونال الشام من المهاجرين النصيب الأوفر ، لأسباب يطول شرحها . ويتجاوز بيانها غرضنا من هذه التهيئة<sup>٢٢</sup> .

٢٢ . وقد بناها على نحو التفصيل في كتابنا «التأسيس لتاريخ الشيعة» . فلمن يرغب في التفصيل وتوثيق هذه المعلومات الرجوع إلى الفصلين الرابع والخامس منه .

لكننا، ونحن نحاول أن نصِفَ حال المنطقة المجاورة لجبل عامل عشية الغزو الصليبي، نُولي اهتماماً خاصاً لمن عُرِفوا في كُتُب السِّير والتاريخ باسم «همدان الأردن»<sup>٢٣</sup>، بوصفهم طليعة حركة استيطان. كان لهم أبعاد الأثر في الصورة السكانية للأردن، وتالياً لجبل عامل.

ولقد اعتمد الفاتحون المسلمون، بعد أن بسطوا سلطانهم على الشام، قسمة إدارية-عسكرية رباعية. منها أنهم قسموا جنوبه إلى جندين: «جند فلسطين» و«جند الأردن». وجعلوا طبرية قاعدة هذا الأخير. وتمتد حدوده من أذرعات شرقاً إلى ساحل البحر غرباً، ومن اللجون إلى طبرية شمالاً. ومن «مُدنه قدس وصور»<sup>٢٤</sup> أي أن جبل عامل كان من جملة هذا الجند. دون أن تعني هذه الإشارة الإلماح إلى أنه كان من جملة منازل همدان في ذلك التاريخ المبكر، والبدء من هذه النقطة في بناء تصوّر لعمرانه في الإسلام. فالحقيقة أننا لانعرف بالتحديد مواطن همدان من هذا الجند. وإن كنا على يقين من أنه اختصَّ بها واختصَّت به زماناً طويلاً.

مهما يكن، فقد بدأ استيعاب همدان القادمين من اليمن في «جند الأردن» في وقت مبكر، بعيد السنة ١٣هـ/ ٦٣٤م تحديداً<sup>٢٥</sup>. والظاهر أن هؤلاء كانوا فاتحة هجرة همدانية واسعة، خرجت من الكوفة باتجاه الشام في وقت ما خلال العقد الخامس للهجرة. في الطرف السياسي الذي أشرنا إليه أعلاه. كان من أثرها أن غدت هذه القبيلة ذات التاريخ العنيف قوة سياسية ذات أثر في المنطقة<sup>٢٦</sup>. تبعمهم بعد أربعة عقود على الأرجح الأشعريون. وهم بطن من مذحج، فنزلوا طبرية بحيث إنهم في القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد كانوا «الغالين على أهلها»<sup>٢٧</sup>. فضلاً عن هجرات أقل شأنًا، وإن كانت ذات صفة تراكمية، خرجت من الكوفة أيضاً. من النوع الذي نجد الإشارة إليه عند البلاذري<sup>٢٨</sup>.

٢٣. يُذكرون، مثلاً، في: المسعودي «مروج الذهب» ط. بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية ١٩٦٦: ٣ / ٢٨٤. وعبد القادر بدران «تهذيب تاريخ دمشق»، ط. بيروت ١٩٧٩: ٤ / ٤٤٦. وابن ماکولا «الإكمال في رفع الأرتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والصفات»، ط. حيدرآباد، لات: ٥٠٣ / ٢. ٢٤. أحسن التقاسيم / ١٥٤.

٢٥. «تهذيب تاريخ دمشق»: ٤ / ٤٤٦.

٢٦. المحافظ عبد الرحمن النصري. «تاريخ أبي زرعة الدمشقي» مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، لات: ١ / ٢٣٥. و«الإكمال»: ٢ / ٥٠٣. و«التأسيس لتاريخ الشيعة» / ٩٥ وما بعدها.

٢٧. يعقوبي، أحمد بن جعفر الأخباري: «البلدان» ط. النجف ١٣٧٧هـ/ ١٩٦٤م / ٨٤. و«امتداد العرب في صدر الإسلام» / ٧٧. و«التأسيس لتاريخ الشيعة» / ١٩٣.

٢٨. أبو العباس أحمد البلاذري: «فتوح البلدان»، ط. بيروت ١٣٧٧هـ/ ١٩٨٧م / ١٧٦.

تلك الهجرات وأشباهها، مما ضاع ذكره، شكّلت مع الوقت عاملاً سكانياً قوياً في جنوب الشام. لخصه المقدسي في القرن الرابع بقوله: «وأهل طبرية ونصف نابلس وقُدَس وأكثَر عمّان شيعية»<sup>٢٩</sup>.

فهذه صورة على ما يكفي ويقوم بالغاية من إيرادها لما كان عليه جنوب الشام خصوصاً عشية الغزو الصليبي. ولما كانت عليه تركيبته السكانية وأصولها. وعلاقة ذلك بهويته. ولمن يريد التوسّع في هذا قراءة الفصل التاسع من كتابنا «التأسيس لتاريخ الشيعة...».

ثم هناك إلى الغرب من جبل عامل مدينة صور. التي كانت في ذلك الأوان من أجل مُدُن الساحل الشامي وأُفصَح وأحصنها. واستناداً إلى ناصر خسرو، الذي زارها عام ٤٣٨ هـ / ١٠٤٧ م، فقد كان معظم أهلها شيعة<sup>٣٠</sup>. ولا شك أن التشييع كان مُعَرَّفاً فيها في ذلك الأوان. ليس فقط لأن ملاحظة ناصر خسرو لم تكن آنية، بل هي تصيف وضعاً راسخاً ذات تاريخ، بل أيضاً لأن لدينا ما يكفي من الأدلة على أن التشييع في أهل صور سابق في الزمان بكثير على تاريخ زيارته لها<sup>٣١</sup>.

فمن كل هذا نعرف أن جبل عامل كان مُحاطاً من جنوبه وغربه بمراكز سكانية كبيرة، شيعية أو يغلب عليها التشييع. ولنتذكّر أن غرضنا من إيراد هذه المعلومات هو بيان أثر الغزو الصليبي في أهم مشكلة تطرحها هذه المرحلة من البحث. أعني عمران جبل عامل وفقاً لما وصفته القطعة المُقتبسة عن ابن جبير.

#### ٤- عمران جبل عامل وعلاقته بالاجتياح الصليبي

تضافرت عوامل عديدة، اجتماعية ونفسية وسياسية، على جعل وطأة الحرب على المدنيين، الذين كانت مدنهم وقراهم في نطاق الأعمال العسكرية للغزاة الصليبيين، أقسى ما يكون وأفدح ما يكون.

٢٩. أحسن التقاسيم / ١٧٩.

٣٠. ناصر خسرو القبادياني: «سفرنامه» ترجمة يحيى خشاب. ط. بيروت ١٩٧٠ / ٥٠.

٣١. الثوري، ميرزا حسين: «مستدرک الوسائل». ط. طهران، المكتبة الإسلامية، لات. ٣ /

٤٩٨. و«أعيان الشيعة»: ٣٩ / ١١٤.

من ذلك تركيبة الجيش الغازي . الذي رأيناه يجمع بين اللصوص والمجرمين ، وكل من يتبغي التخلص من حياته البائسة ، والبحث عن فرصة جديدة لحياة دنيوية أكثر سعادة . إلى جانب المتدينين ، «شعب الله» حسب فوشيه الشارترى<sup>٣٢</sup> . الذين امتلأت نفوسهم بالأضاليل ، التي صورت لهم قتال المسلمين أقرب طريق إلى السعادة الأخروية . أمّا قادة الغزو والمحرضون عليه والمساعدون فيه ، من رجال كنيسة وأمرأ وتجار ، فقد نظر كل منهم إلى ما يمكن أن تعود عليه من منافع مادية أو سياسية .

هكذا التقت نوازع ومصالح كل الذين شاركوا في الغزو عند مطلب أساسي ، هو انتزاع الأرض من أهلها بقصد الإقامة فيها . أي ما نسميه اليوم بالاستعمار الاستيطاني . بقتلهم أو بأسرهم وبيعهم عبيداً . أو بتركهم ، وهذا في غير المدين ، ليعملوا عليها . وسلب كل ماتصل إليه أيديهم من ثروة ومتاع . وذلك كله يُمسّر القسوة المهولة التي عومل بها المدنيون في بدايات الغزو خصوصاً . إمّا بقصد إفنائهم ، أو السيطرة عليهم ، أو إرغامهم على الهرب تاركين كل شيء طعمة للغزاة . خصوصاً حين سقوط المراكز المدنية الكبرى . حيث كانوا يعمدون إلى تنظيم مذابح شاملة ، يُقتل فيها عشرات الألوف دون تمييز ، كما حدث في القدس . ووصفه شاهد العيان فوشيه الشارترى ، قسيس قائد الحملة ، بكلمات لا تقل استهتاراً بالنفوس البريئة عن القتل أنفسهم<sup>٣٣</sup> .

يُقدّم لنا المؤرّخ المعاصر ابن القلانسي (ت : ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) صورة موجزة ، ولكنها وافية ، عن أثر الحرب في العمران بقوله : «ولم يبق بين عكا والقدس ضيعة عامرة»<sup>٣٤</sup> . وكلام يُشبهه لدى مؤرّخ معاصر آخر أكثر شهرة هو ابن الأثير<sup>٣٥</sup> . ممّا نأخذ منه أن هذه المنطقة الواسعة ، التي كانت في الغاية من العمران قبل الحرب ، قد آل أمرها إلى الخراب التام . ومن ذلك مدينة طبرية ، حاضرة الأردن وعاصمة التشيع فيه ، بما يُحيط ببحيرتها الواسعة العذبة من عشرات القرى والمزارع . التي وصفنا عمرانها وازدهارها في قسم برأسه من كتابنا «التأسيس لتاريخ الشيعة ... / ١٦٨ وما بعدها» . وقد سقطت في وقت مبكر ، بعد السقوط الفاجع لمدينة القدس

٣٢ . «تاريخ الحملة إلى القدس» ترجمة زياد العلي . ط . عمّان ١٩٩٠ / ٨١ .

٣٣ . نفسه / ٧٥ .

٣٤ . ابن القلانسي ، أبو يعلى حمزة : «ذيل تاريخ دمشق» . ط . بيروت ١٩٠٨ م / ١٨٦ .

٣٥ . ابن الأثير ، علي بن محمد الشيباني : «الكامل في التاريخ» . ط . بيروت ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م : حوادث السنة ٥٠٧ .

مباشرة. أي في حدود السنة ٤٩٤ هـ / ١١٠٠ م. وصيرها المحتلون مركز تجمع عسكري لهم. ينطلقون منه إلى الحرب والغارة.

ولا تقول المصادر الإسلامية شيئاً عن مصير أهل طبرية - لكن المؤرخ سعيد عاشور ينقل عن مصادر غربية، أن أهلها فروا منها قبل وصول الغزاة إلا أقلية من المسيحيين<sup>٣٦</sup>. وليس من الصعب أن نتصور سبب فرارهم، بعد علمنا بالفظائع المهولة التي ارتكبت في القدس.

أما صور فقد أتاحت لها حصانتها الفريدة أن تصمد سحابة ربيع قرن. لتسقط في السنة ٥١٨ هـ / ١١٣٤ م. بعد حصار طويل قاسٍ. أشرف منه أهلها على الهلاك. انتهى بالتعاهد على أن يؤمن كل من فيها. ويخرج من أراد الخروج. ويُقيم من أراد البقاء. وقد وصف لنا المؤرخ أبو المحاسن خروج أهلها منها بقوله: «جاء الأتابك [يعني طُغتكين بن بوري، أتابك دمشق، (٤٩٧-٥٢٢ هـ / ١١٠٣-١١٢٨ م)] بعسكره، فوقف إزاء الإفرنج. ووقفوا بإزائه، وصاروا صفيين. وخرج أهل البلد يرون بين الصفيين. ولم يعرض لهم أحد بسوء»<sup>٣٧</sup>.

نعتقد أن تاريخ جبل عامل ومجده بدأ من هذه النقطة الكثيبة، ما عرفناه منها وما ضاع في عتمة تلك الأيام السوداء. ذلك أنه لا مرء في أن أهل أكبر حاضرتين بجواره قد اتجهوا إلى الجبل المجاور. وأتى لهم أن لا يفعلوا؟ وأين يولون وجوههم إن لم يكن إليه؟ ودائماً كانت الجبال ملجأ لمن يستعصم بها.

إن أول إشارة وصلت إلينا عن بدء عمران جبل عامل، عمراناً يُذكر ويظهر أثره، يرجع موضوعها إلى السنة ٥٠٥ هـ / ١١١١ م. أخذناها عن ابن القلانسي. يوردها في سياق كلامه على الأعمال العسكرية للصليبيين ضد مدينة صور الصامدة. حيث يصف كيف نهض أتابك دمشق طُغتكين إلى نجدة المدينة المحاصرة بـ «جماعة وافرة من الأتراك [ . . . . ] وأتت أهل صور رجالة كثيرة من جبل عامل، رغبوا في ذلك»<sup>٣٨</sup>. يعني في نجدة المدينة. وهو نص بين على أن الجبل قد غدا، بعد سقوط طبرية باثنتي عشرة سنة، عامراً عمراناً جيداً. بحيث يستطيع أن

٣٦. «الحركة الصليبية»: ١ / ٢٦١.

٣٧. ابن نعري بردي، أبو المحاسن يوسف الأتابكي: «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة». ط. مصر، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، لات: ١٨٣ / ٥.

٣٨. «ذيل تاريخ دمشق» / ١٧٨.

يُساهم في نجدة حاضرتة المُحصَّرة بـ «رجالة كثيرة». تطوَّعوا من عند أنفسهم للدفاع عنها. والقارئ الذي يُحسن فهم لفتات هذا النص الدقيق، الذي يُبنى عن خبر صاحبه بتفصيلات موضوعه، سيجد فيه ما يُعري بالوقوف عنده والتأمل في مغزاه ومعناه. من ذلك كلمة «رجالة»، التي تلمح إلماحاً إلى الطابع الشعبي-الجماهيري لهذه النجدة، التي تحركت بمبادرة ذاتية فيما يبدو. عندما رأت السُلطة حيث يجب أن تكون.

هذان الملمحان، أعني الملاءة أو شبه الملاءة السكانية والمشاركة في عمل عسكري، جديان علينا حتى تاريخه. نحن الذين تتبَّعنا، بقدر ما أسعفتنا النصوص، الأطوار التي مرَّ بها تاريخ الجبل. في وسع قارئ وعي قلبه جيداً الصورة التي استفدناها من المقدسي أن يرى فيها طابع الفجأة، أو ما هو بالفجأة أشبه. الأمر الذي لانجد له تفسيراً إلا في العاصفة السكانية وحركة النزوح الهائلة التي أنشأها الغزو في مُحيط جبل عامل. وسيكون علينا فيما يأتي أن نتبَّع صيرورة كلِّ من ذينك اللذين هما حتى الآن ملمحان. بقدر ما تُسعفنا النصوص المُتاحة. كما نرى الإنسان، ونرى أعماله المُصلة بذاتيته. والذود عن النفس والأرض من أصدق وأعمق ذاتيات الإنسان. لأن أثره لا يبدو في غايته المباشرة فقط، أعني في حفظ النفس والأرض. بل إنه يُعزِّز الذات الجمعية. فتغدو أعمق وعياً بالهوية، وبحاجتها إلى التسامي بذاتيها. وفي رأسها الهوية الثقافية الجامعة. ولطالما كانت الأزمات المصيرية الكبرى، إذ تأتي من تهديد خارجي للوجود، بوتقة تصهر فيها الأمم. لتخرج منها أشدَّ صلابة وأكثر تماسكاً. وليس هذا الكلام مُصادرة على البحث. لكنه بمثابة علامة على الطريق الذي عليه أن يسلكه. ومن حقَّ الباحث أن يسبق قارئه بخطوات، ما دام يقوده على الطريق المُشعب. شرط أن يصلا معاً في نهاية المطاف.

ثم إننا نستفيد من النص نفسه أن أسافل جبل عامل، على الأقلِّ، أي التلال الغربية منه المُسامتة للساحل عند صور، ظلَّت حتى سقوط هذه طاهرة من الاحتلال. فلكي يأتي «رجالة كثيرون» منه مع طُعَتِكين لنجدة المدينة، يقتضي أن يكونوا أحراراً فيما يفعلون. إذ أنه من غير المعقول أن تسمح سُلطة الاحتلال بمثل تلك المشاركة الواسعة والعلنية، ممَّن تحت سلطتها، بأعمال قتالية ضدها. وهذا أمر مفهوم. فمن وجهة نظر تكتيكية، يكون لكل مركز قتالي مده الحيوي الذي يتناسب مع قوته. وقد أشرنا قبل قليل إلى أن صور كانت في الغاية من المنعة والحصانة. فمن الطبيعي إذن أن تكون سلطة الاحتلال على ما والاها معدومة أو ضئيلة. وما

ندري بالتحديد متى امتد الاحتلال إلى أعاليه الشرقية، قادمًا من جهة الجنوب ولا ريب، أي من جهة فلسطين. بيد أنه من المؤكد أن تلك الأعالي كانت تحت سلطتهم في السنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م. وهو العام الذي أتم فيه بلدوين الثاني، ملك القدس، بناء قلعة تبين الحصينة «لكبح جماح أهل صور»<sup>٣٩</sup>. وهذا التاريخ مؤكد، لأنه يتقاطع مع ما تقوله مصادر إسلامية<sup>٤٠</sup>.

إذا صح كل ما قلناه عن تطور الأحوال بجبل عامل، فإنه يعني أنه طفر من حالة شبه الخواء التي كان عليها، وفقاً لاستفدانه من نصوص المقدسي، إلى حالة الامتلاء السكاني، أو فلنقل إلى حالة الكفافية، كما وصفها ابن جبير، في خمس وثمانين سنة قمرية. أي منذ النزوح الكبير من طبرية وما والاها في السنة ٤٩٤ هـ / ١١٠٠ م، حتى السنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م، عام عبور ابن جبير. بل في أقل من ذلك. لأن ابن جبير وصف وضعاً راسخاً يقتضي زمناً وعملاً طويلاً. وهو بالتأكيد، أي ذلك الوضع، لم يهياً من أجل أن يستعرضه الرحالة ويصفه للناس.

ثم لا شك أن تلك الألوף المؤلفة من الناس، الذين اضطروا واضطراً إلى النزوح فجأة عن وادي الأردن الخصيب، قد واجهوا تحدياً كبيراً في مصيرهم، إذ وجدوا أنفسهم فجأة على هضاب جبل عامل الفقيرة الشحيحة، في شروط أدنى بكثير من تلك التي خبروها في مراعهم المفقودة. حيث الأرض الخصبة والمياه الوفيرة والطقس الدافئ. ثم لا شك أنهم كانوا في وضعهم الجديد أمام خيار وحيد، هو الاندفاع الكامل إلى العمل الدائب، على إنجاز بنية إنتاجية ومعاشية ملائمة. من بناء مساكن، واستصلاح أراضٍ، واجتراح تقنيات جديدة لاستنباط الأرض، تتناسب مع الشروط المحلية، وما إلى ذلك. وذلك ظرف يُنجز فيه الإنسان عادةً ما لا يُنجزه في وضع الراحة والشروط المهيأة. وهذا التحليل يُساعد القارئ على فهم وتصوّر الظرف الموضوعي والنفسي، الذي أهل أولئك النازحين لأن ينوا في الزمن القصير نسبياً ما وصفه ابن جبير بأوجز ما يكون، في عبارته التي اقتبسناها آنفاً: «وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر متظمة».

علينا هنا أن نلاحظ أمراً هاماً، هو أن جبل عامل هو البقعة الوحيدة التي كانت قبل الاحتلال شبه خالية. وتزامن عمرانها مع احتلالها، بالهجرة الكثيفة إليها من وادي الأردن وصور. إذن،

٣٩. «تاريخ الحملة إلى القدس» / ١٦١.

٤٠. ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى: «مسالك الأبصار» تحقيق دوروتيا كرافولسكي. ط.

بيروت ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م / ١٥١ و «معجم البلدان»: ١٤ / ٢.

فنحن هنا أمام ظاهرة فريدة في تاريخ الاحتلال الصليبي للشام، لسنا نعرف لها ثمانية. ولا بد أن يكون لذلك أثره الخاص في هذا الجانب أو ذاك من حياة الناس. بيد أننا، من أسف، لا نملك المعلومات الكافية التي تؤهلنا للخوض في هذا الموضوع الدقيق بكافة جوانبه. ولو تهيأت له الأسباب لربما أتى دراسة مقارنة طريفة.

لكن الحد الأدنى مما حدث فيه، في هذا الطور من تاريخه، من امتلاء سكاني وسيادة احتلال، وما لا بد أن يكون صاحب ذلك من تمصير قُرى وبلدان، أنك تجد فيه حتى اليوم أسماء قُرى ما تزال تحمل جرساً فرنسياً. ومن المعلوم أن اللغة الفرنسية، بمختلف لهجاتها المحكية، كانت اللغة الرئيسة بين المحتلين<sup>٤١</sup>. هذا مع ضرورة الأخذ بالحسبان التحريف الذي لا بد أنه نال الكلمات فأبعدها بنسب متفاوتة عن أصلها.

من ذلك "باريش" على اسم المدينة التي غدت العاصمة الفرنسية Paris و"فرون" Front و"دوبيه" Dubais و"شلعبون" Chalon وهو اسم عائلة من الأشراف الفرنسيين كان لها دور بارز في الحروب الصليبية و"يارون" Yaron و"الحلوسية" Aless و"أرنون" وهو اسم قلعة مما بناه الصليبيون، معروفة أيضاً باسم Forte Beau أي: الحصن الجميل. ويقول أبو الفداء إن أرنون اسم رجل<sup>٤٢</sup> و"تيرون" Tyron وهو اسم قلعة صليبية أيضاً و"طلوسة" التي يبدو أن الصليبيين الفرنسيين شادوها على أرض كانت تُعرف من قبل باسم "النحارير"، وسموها Toulouse على اسم المدينة الفرنسية المعروفة، تعبيراً عن الحنين إلى الوطن البعيد، شأن غيرهم ممن بدّلوا أوطانهم. ومع الزمن حُرّف الاسم الأصلي ليتناسب مع اللسان العربي. ويذكر السيد محسن الأمين أن في مسقط رأسه "شقراء" مدافن تحمل شارات صليبية<sup>٤٣</sup> ولعلهم هم الذين مصرّوها. ويقول ابن فضل الله العمري، إن تبنين وهونين هما «حصنان منيعان بناهما الإفرنج»<sup>٤٤</sup>. ومن المرجح بالتالي أنهم هم الذين سمّوهما. وعلى هذا فإن اسم البلديتين اللتين قامتا فيما بعد حول كل من الحصنين، لإيواء المزارعين المسلمين فيما يبدو، فرنسي أيضاً. وتحسّس

٤١. «الحركة الصليبية»: ١ / ٤٦٥.

٤٢. أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل: «تقويم البلدان» ط. باريس ١٨٥٠/٥٦.

٤٣. «خطط جبل عامل» / ٢٩٥.

٤٤. «مسالك الأبصار» / ١٥١.

جرس الكلمتين يؤيد ذلك . ولنلاحظ أن ابن جبير قال إن مبيته كان أسفل الحصن ، مما يوحي بأن البلدة لم تكن قد قامت بعد .

والجدير بالذكر أن هذه الظاهرة غير محصورة في جبل عامل ، وإن كانت فيه أبرز ، لما ذكرناه من أن امتلاءه قد ترافق مع احتلاله . ففي جوار اللاذقية قربتان تحملان إسماً صليبياً صريحاً . إحداهما " الشبّطليّة " ، وما هذا الاسم الغريب إلا تحريف عن اسم منظمّة الرهبان المقاتلين الصليبيّة المعروفة عند المؤرخين العرب باسم " الأستباريّة " ، وبالفرنسيّة Hospitaller . وذلك أمر معروف عند أهلها حتى اليوم ، كما عرفت منهم . والثانية " سنجان " ، الذي يرجع إلى الاسم الآخر والأقل شهرة للمنظمة نفسها " أخويّة القديس حنّا " Ordre de Saint Jean . التي كرّست عند تأسيسها للقديس يوحنا . ثم تحوّلت أيام الحروب الصليبيّة إلى مؤسّسة فرسان عسكريّة . لكننا لاحظنا أن الظاهرة أوسع وأكثر انتشاراً في جبل عامل . وما ذلك إلا لما سبق وذكرناه من تزامن عمرانته مع احتلاله .

ومن تمام الكلام عمّا جدّ على جبل عامل من عمران تحت الحكم الصليبي أن نقول ، إن المحتلّين بنوا طريقاً معبّدة من صور إلى بانياس ، ابتغاء تسهيل التواصل بين الساحل والداخل . تمتدّ من صور فدردغيّا فصريفا وصولاً إلى بانياس . ماتزال آثارها واضحة قرب دردغيّا . ممّا يدلّ على اهتمامهم البالغ بشؤون العمران . خصوصاً وأن أجيالاً منهم قد وُلدت في جبل عامل وعاشت فيه ، ولم تعرف غيره وطناً . بحيث أخذوا ينظرون إليه بوصفه وطناً نهائياً لهم .

لسنا نملك معلومات مؤكّدة ووافية تؤهّلنا للخوض في شؤون تطوّر العمران في جبل عامل بعد ذلك الطّور العنيف ، الذي كان له الفضل مع ذلك في عمرانته وفي التأسيس لهوضه فيما بعد . اللهم إلا ما نجده في نصّ المعاهدة التي عقدها السلطان المملوكي أبو المعالي الألفي ، المنصور سيف الدين قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ / ١٢٧٩-١٢٩٠م) و«مالكة صور» الصليبيّة «دام مرغريت بنت سير هنري بن الإبرنس بيمند» Dame Marguerite fillet de sir Henri fills de prince Boemond . وذلك بتاريخ ١٤ جمادى الأولى ٦٨٤ هـ م / ١٢٨٥ م . التي أورد نصّها ابن عبد الظاهر<sup>٤٥</sup> . وفيها ثبت يفترض أنه شامل للقريّ والضياح في نطاق مدينة صور . ووضّح في سياق قسمة المنطقة موضوع المعاهدة بين السلطان والأميرة . ولذلك فإنه لا ريب في دقّته وشموله .

٤٥ . محيي الدين بن عبد الظاهر : «تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور» . ط . القاهرة ١٩٦١ م / ١٠٣-١١٠ .

يبدو جلياً من نصّ المعاهدة، أن الأميرة الصليبيّة لم تكن في وضع يسمح لها بإملاء شروطها. وأن غاية ما كانت ترمي إليه السماح لها بالاحتفاظ ببعض الأملاك التابعة لإمارتها. التي كانت في سالف الأيام تمتدّ حتى أملاك أمير تبنين من الشرق، ومملكة القدس من الجنوب، وإمارة صيدا من الشمال. ولا عجب في ذلك. فقد كان المماليك ماضين في ذلك الأوان في تحرير مُدن الساحل. ولم يكن قد بقي أمامهم إلا عكا وصور. والحقيقة أن الملك المنصور نفسه توفي بعد خمس سنوات وأشهر، وهو يستعد للاستيلاء على عكا. لكن خلفه نجح في تحريرها بعد سنتين وأشهر. وتبعته صور لتسقط دون قتال في ١٧ جمادى الأولى ٦٩٠هـ / ١٢٩١ م. وهكذا نعرف أن المعاهدة، التي عُقدت لمدة عشر سنين كوامل، لم يسمح لها تطوّر الأحوال بأن تموت حتف أنفها.

هذه الوثيقة الفريدة كان يمكن أن تكون ذات فائدة جليّة لما نسعى إليه، ولتاريخ جبل عامل إجمالاً. وذلك بما تُحصيه من مواطن السكن والإنتاج. لولا أنها، أولاً، لا تُغطّي سوى المنطقة الساحليّة والهضاب الغربيّة القريبة منها. ولا تعرض لقلب الجبل وأعالیه الشرقيّة. وثانياً، لأن تاريخها، كما قلنا، يعود إلى نهايات الحكم الصليبي، وبالتحديد قبل التحرير الكامل بثماني سنوات. وثالثاً، وهذا هو الأكثر أهميّةً، لأن أسماء القرى والضياع، كما نقرؤها اليوم في المصدر المذكور، مُشوّش جداً. بسبب تصحيّفات النسخ فيما يبدو، التي ثبتها مُحقّق الكتاب. بسبب نقص معرفته المباشرة بموضوع عمله في هذه النقطة. بحيث أن إسم "باتوليه" صار على يده "بابوليه" و "حنويه" "حيويه" و "عباً" "عباً" و "رشكانيّة" "رسكانة" و "جويّاً" "حويّاً" و "النفاحيّة" "النفاحية" و "طير دبا" "طير ديا"، وما إلى ذلك - ممّا أضع علينا فرصة الاستفادة من هذه الوثيقة البالغة الأهميّة. خصوصاً فيما يعود إلى ما اندثر من القرى والمزارع، والأخريات التي جدّت من بعدها. أي إجمالاً الحركة السكانيّة بقدر ما نقرؤها في العُمران.

من غريب الاتفاق، هل هو بالفعل اتفاق؟، أن ما تُسميه المعاهدة «بلاد صور»، وتضع علامات بيّنة لحدودها، يُطابق تقريباً مانُسميه اليوم في القسمة الإداريّة «قضاء صور». ولا ريب أن ذلك الإطلاق يعكس إرتكازاً مُتسالمًا عليه ومعمولاً به في زمانه. حدوده، بحسب ما تقوله المعاهدة، من الشمال نهر القاسميّة، ومن الغرب قرية صريفا، التي تسميها المعاهدة «أصريفيا»، و «رشكانيّة». ومن الجنوب قرية يارين، القريبة من الحدود الدوليّة مع فلسطين. داخل الحدود

تُحصي المعاهدة بالاسم ثمانية وثمانين قرية عدداً. أكثرها غير معروف اليوم. ومع ذلك فإن الفائدة هي في هذا الإحصاء. ذلك أنه يدلنا على حالة العمران التي كانت عليها المنطقة، بعد مائة وثمانين سنة من الاحتلال. أو بالأحرى يدلنا على مبلغ نجاح المحتلّين في استثمار الأرض والإنسان. إستثماراً يعود الجزء الأكبر من خيره إليهم. وفق سياسة دقيقة، قرأنا عنها لدى ابن جبّير أنفاً.

## ٥- عن جبل عامل تحت الاحتلال

أهل طبرية وما والاها من وادي الأردن، الذين تركوا أوطانهم وحياتهم الرغيدة، وأهل صور التي صمدت للصليبيين رُبع قرن بعد أن سقط كل ما حولها. هؤلاء جميعاً لهم جبل عامل على هضابه. ليبدأ من هنا صفحة جديدة من تاريخه.

أولئك الناس بنزوحهم عن أوطانهم نجوا بأنفسهم من المصير المريع الذي حاق بأهل المذُن والقُرَى التي ضربها الغزاة. حيث كان الذبح مصير الرجال المحتوم. أمّا النساء والأطفال فقد بيعوا بأسواق النخاسة بثمن بخس ليخدموا في الأديرة أو في مُختلف الأعمال الشاقّة<sup>٤٦</sup>.

مصادر الفترة تسكت عن أمور كهذه بالنسبة لمن نزل جبل عامل من هؤلاء النازحين، بعد أن لحق بهم الاحتلال إلى منزلهم الجديد. ممّا يحملنا على الترجيح بأن السادة الجُدُد كانوا قد بدؤوا يفكّرون بضرورة الإبقاء على من يعمل لهم في الأرض التي استولوا عليها. ولم يكن لهم من رجالهم من يكفي للتفرُّغ لها. في ظل مُقتضيات الحروب المتواصلة. وضرورات حماية المكتسبات الكبيرة التي حصلوا عليها في الصدمة الأولى. وذلك أمر مفهوم. فرجال الموجة الأولى من الغزاة كانوا يفكرون تفكيراً تطهيرياً، متأثرين بالتعبئة العنيفة التي تلقّوها. أمّا بعد أن استقرّ من استقرارهم، فمن المتوقع أن يبدأوا بالاهتمام بالأمور العمليّة. خصوصاً ما يتصل منها بشؤون الإنتاج وبحاجات المجتمع الجديد.

نعرف على نحو الإجمال، أن المحتلّين نقلوا إلى ممتلكاتهم الجديدة في الشرق، بعد استقرارهم فيه، الصبغ الاجتماعيّة والسياسيّة المألوفة لديهم، والمعمول بها، خصوصاً في موطن أغلبهم فرنسا. ومن ذلك نظام القنّانة الذي كان أبرز ما في النظام الاجتماعي والإنتاجي في

٤٦. «الصليبيون في الشرق»/ ١٣٤.

أوروبية الغربية. هكذا، فإن الأسياد الجدد للأراضي المفتوحة جعلوا الفلاحين الذين كانوا يعيشون في القرى والمزارع عبيد أرض. يملكهم عملياً مالك الأرض<sup>٤٧</sup>. وما من سبب يدعوننا إلى القول بأن أوضاع سكّان الجبل كانت مختلفة في هذا بأي معنى من معاني الاختلاف.

فمن ذلك نعرف أن ما أتانا به ابن جبير، إذ وصف ما كان عليه الناس في جبل عامل ذلك الوصف المعبر عن الرفاه والطمأنينة، كان وصفاً سطحياً ساذجاً. نظر إلى ظاهر الأمور. التي تبدو لمجتاز عابر سبيل. يطرق بلاداً لم يعرفها من قبل. ولم يتح له أن يختلط بالناس ويكشف خبيثهم، الكامن تحت ما رآه من مظهر خادع. وهو الذي عرفنا أنه اجتاز الجبل في يوم وبعض يوم. إذن، فما حقيقة ما عبّر عنه بقوله: «وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه» وعقب عليه بالاستعاذة من الفتنة، إلا الخضوع والاستكانة ممن لا يجد إلى غيرهما سبيلاً.

ومن ذلك نعرف أيضاً، أن حياة أهل الجبل تحت الاحتلال ما كانت إلا حياة زرية بائسة لا أفتق لها. وأن أجيالاً بعد أجيال منهم وُلدت وعاشت لغير ما هدف إلا أن تبقى حية. وهذه الكلمات القليلة تلخص كل ما بوسع التأمل أن يستنبطه من واقع الحال حول سُحابة قرن ونصف قرن من الاحتلال. أعني إلى عصر صلاح الدين. وخصوصاً بعد حطين (٥٨٣هـ / ١١٨٧م) وما تلاها من انهيار مملكة القدس الصليبية.

نُمهدّ بالعبارة الأخيرة لولوج صفحة جديدة من تاريخ جبل عامل. عنوانها قيام أول سلطة محلية فيه. وذلك تطورٍ سياسي فائق الأهمية في تاريخ الجبل. الذي نعرفه حتى الآن مجرد تجمع ظرفي لمزق جماعات اضطرت اضطراباً للنزوح عن أوطانها وحياتها الهادئة فجأة، ونزول هضاب جبل عامل. هذا التطور حمل لهؤلاء النازحين فرصة العيش في ظلّ نظام سياسي. حيث أصبح لأول مرة إمارة على رأسها أحد أمراء صلاح الدين. نعني به حسام الدين بشارة. الذي لانعرف تمام اسمه معرفة تطمئن إليها النفس. لكننا نعرف على نحو مؤكّد أنه كان أحد أمراء صلاح الدين وصاحب عسكر. ثم والياً على عكا فبانياس. وحين توفي صلاح الدين كان هو أرفع الأمراء في الشام مكانةً وأعلامهم شأنًا. وجرت عليه من بعده خطوب وخطوب. لكن وُلده نجحوا بطريقة ما في الاستمرار بما كان عليه حسام الدين من الإمارة على جبل عامل. وظلّوا

٤٧. إبراهيم علي طرخان: «النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى». ط. القاهرة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م ٥٨ و «الصليبيون في الشرق» / ١٣٢ - ٣٣.

على هذا حتى الفتح العثماني للشام، أي ما يزيد على الثلاثة قرون. وهذه خلاصة سقناها على سبيل العجالة، علّما تعين القارئ على الدخول في مفاوز السيرة المعقّدة لهذا الأمير، وفي موقعه من تاريخ جبل عامل<sup>٤٨</sup>.

والمصادر المعاصرة لا تذكر إلا رتبته «الأمير» ولقبه «حسام الدين» واسمه «بشارة». دون أن تأتي على اسم عائلته أو عشيرته. ودون أن تنسبه نسبة ما. ثم إنها لا تأتي على ذكره إلا بمناسبة ما يتصل بغيره. أي حيث تتقاطع سيرته مع سيرة صلاح الدين، أو سيرة أخيه الملك العادل، أو سيرة ابنه الملك الأفضل. كما أننا لم نعثر على ترجمة مستقلة له، شأن غيره من أمراء ذلك الزمان. الذين لم تخل من ذكرهم أمهات كُتِب التراجم والسير. بوصفهم أبطال الأوان.

لكن المصادر المعنيّة بتاريخ جبل عامل تقول له اسماً أكثر إيحاءً، هو حسام الدين بشارة بن أسد الدين بن عامر بن مهلهل بن أحمد ابن سلامة العاملي<sup>٤٩</sup>. والمصدر الأول المذكور أدناه ينقله بالواسطة عن (تاريخ ابن فتحون)، وهو تاريخ مفقود من أسف. ولذلك يتعذّر علينا التثبت من صحة النقل.

ومع ذلك فإن للاسم الأول بنفسه دلالة. من حيث أنه اسم عربي صريح. فهذا الأمير من الثابت من إسمه على الأقل أنه طائر في غير سريره، بين حشد الأسماء التركيّة والكردية لأمرء صلاح الدين. من مثل: جندُر، كر جي، سنقر، إياز، يازكوج، جورديك، جهاركس، سياروخ، قراقوش. وهذه الملاحظة تقوي ما ذهب إليه المصدران العامليان، القائلان إن الأمير بشارة عاملي. وتُضيق من فُسحة الاحتمالات عن أصله ومنبته، إلى حدّ حصره بجبل عامل أو بجواره على أبعد تقدير.

ما يزيد الأمور وضوحاً بالنسبة إلينا، أن نعرف أن جيش صلاح الدين كان في الحقيقة تجمّعاً، وإن شئت قلت تحالفاً، بين عدد كبير من الجيوش القادمة من مختلف الأنحاء. أكراد من ديار بكر وشمال العراق، وأتراك من أسية الوسطى. ومن هنا جاء ذلك الحشد من الأسماء الكردية والتركيّة. كما كان يحدث أن يلتحق بالجيش ذي السُمعة الطيبة بدو من سيناء وغيرها، دون

٤٨. ويمكن للمستزيد علماً وتوثيقاً الرجوع إلى كتابنا «جبل عامل تحت الاحتلال الصليبي» ط. بيروت، دار الحق، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م / الفصل الثاني ص / ٦٣ وما بعدها.

٤٩. محمد تقي الفقيه «جبل عامل في التاريخ» ط. بيروت ١٤٠٦هـ: ١/ ٢٦ و«خطط جبل عامل» ١٠٩/.

أمير، طمعاً في الحصول على عوائد النهب. وكان كل جيش تابعاً لأميره. لا يتلقى الأوامر إلا منه. كما كان يُنسب إليه. ويُنظّم أثناء القتال تبعاً لهذه الصفة. وأيضاً، كان من سياسة صلاح الدين أن يُولّي على المناطق المأهولة بالعرب مسؤولين محليين، من ذوي المكانة بين قومهم. ليكونوا بمثابة رابط بين السلطة المركزيّة وأهل منطقتهم. يُمنحون لقب أمير أو مُقدّم<sup>٥٠</sup>.

إن أول ذكر لحسام الدين بشارة وقعنا عليه يعود إلى يوم الجمعة ٨ جمادى الآخرة ٥٨٢ هـ / ٢٧ أيلول ١١٨٦ م. أي إلى ما قبل سنة تقريباً من موقعة حطين. حيث صلاح الدين سيره من دمشق في خدمة أبيه شحنة، أي أميراً على طابور حراسة<sup>٥١</sup>.

ثم إنه في العام ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م ولّاه على عكا. بعد أن عدل عن هدمها كي لا تقع في أيدي الأعداء، وقرّر تحصينها. وفي هذا السبيل استدعى الأمير بهاء الدين قراقوش من القاهرة، حيث كان مسؤولاً عن تدعيم أسوارها<sup>٥٢</sup>. الأمر الذي يُفهم منه أن هذا الأمير كان محل اعتماد في أعمال التحصين. كما أن اختيار حسام الدين لولاية المدينة، التي كان الصليبيون يعملون كل ما في وسعهم لاستعادتها، يحمل الدلالة نفسها بالنسبة لأعمال الدفاع. بل ويمكن القول، بالإضافة إلى ذلك، إن اختياره كان اختياراً لعسكره. وأن هذا الاختيار كان يأخذ بعين الاعتبار أنه أمير العسكر المحلي. خصوصاً أننا نعرف أنه في هذا التاريخ كانت المنطقة الممتدة من عكا إلى صيدا قد أصبحت محرّرة. بما في ذلك الأعالي الغربيّة والشرقيّة من جبل عامل. ولم يبق في يد الصليبيين سوى حاضرتة الساحليّة صور<sup>٥٣</sup>.

في شهر رمضان ٥٨٦ هـ / ١١٩٠ م كان قد غدا والياً على بانياس «صاحب بانياس»<sup>٥٤</sup>. وبهذه الصفة كان يُشارك في الأعمال القتاليّة لصلاح الدين. كما كان من أعضاء المجلس الذي كان عليه أن يتخذ القرارات العسكريّة الأساسيّة. يرأسه السلطان أو

٥٠. القلقشندي، أحمد بن علي: «صُبْحُ الأعشى في صناعة الإنشا». ط. القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، لات: ٤ / ٢٩١ وإبن شداد، بهاء الدين: «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفيّة». ط. مصر ١٩٦٦ / ١٠١.

٥١. النوادر السلطانية / ٧٢.

٥٢. العماد الأصفهاني: «الفيح القسّي في الفتح القدسي» تحقيق محمد صبح. ط. مصر، لات. /

٢٧٦.

٥٣. «النوادر السلطانية» / ٨٠ وما بعدها.

٥٤. «الفيح القسّي» / ٤٤٢ و «النوادر السلطانية» / ١٤٧.

أخوه الملك العادل<sup>٥٥</sup>. أمّا في الأوقات التي كانت تهدأ فيها الجبهة، فقد كان مُكَلَّفًا بالتضييق على صور وأميراً على «العسكر المُصدّ لحفظ البلاد من ذلك الطرف»<sup>٥٦</sup>. يعني أميراً على جبل عامل. عام وفاة صلاح الدين (٥٨٩هـ/ ١١٩٣م) كان الأمير بشارة قد بلغ أوج عزّه. ففي ذلك التاريخ وصفه العماد الأصفهاني بـ «المُقدّم على هؤلاء»<sup>٥٧</sup>. يعني الأمراء الذين حضروا المجلس الذي عقده الملك الأفضل لتحليفهم على الإخلاص له، بينما كان والده في طور الاحتضار. بعد صلاح الدين ظلّ بشارة على ولايته. وإن كان قد نقل قاعدته إلى تبنين، أي إلى قلب جبل عامل<sup>٥٨</sup>. لكن الخلاف على الملك بين أمراء البيت الأيوبي حمل له بداية النهاية. إذ ظلّ متخذاً جانب الملك الأفضل ووفياً لقسمه له. بل واشترك بعسكره في حصر دمشق وفيها الملك العادل سنة ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م<sup>٥٩</sup>. وفي السنة ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م حاصر عسكر العادل بانياس وبها حسام الدين «فقاتل وقتل ولده وأخرجوه من البلاد وتسلمها شركس»<sup>٦٠</sup>. يعني الأمير جهاركس، فخر الدين الصلاحي (ت: ٦٠٨هـ/ ١٢١١م) وبتاريخ ٢٦ ربيع الآخر ٥٩٨هـ/ ٢٥ كانون الأول ١٢٠١ توفي<sup>٦١</sup>.

من بعد حسام الدين نجح أخلافه بطريقة ما في الاحتفاظ بإمارتهم على جبل عامل طيلة العهد المملوكي<sup>٦٢</sup>. ممّا يُعزّز القول أنهم وأباهم من قبلهم لم يكونوا غرباء عن المنطقة. لكن التاريخ طوى ذكرهم من بعد الفتح العثماني للشام فلم نعد نسمع لهم حسّاً.

٥٥. المصدران نفساهما / ٥٥٥ و ١٩٥ على التوالي.

٥٦. «النوادر السلطانية» / ٢١.

٥٧. «الفيح القسي» / ٦٢٩.

٥٨. ابن واصل، محمد بن سالم: «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب». تحقيق حسنين محمد ربيع.

ط. القاهرة ١٩٧٧: ٣ / ٧٥.

٥٩. «النجوم الزاهرة»: ٦ / ١٤٨.

٦٠. سبط ابن الجوزي «مرآة الزمان في تاريخ الأعيان». ط. بيروت، دار الشروق، ١٤٠٥هـ/

١٩٨٥م ك ٨ / ٤٧٩.

٦١. أبو شامة المقدسي: «الذيل على الروضتين». ط. بيروت، دار الجيل، لات / ٣١.

٦٢. محمد كرد على: «خطط الشام». ط. بيروت ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٨م: ٢ / ١٩١ وشهاب الدين

أحمد بن طوق: «التعليق» تحقيق جعفر المهاجر. ط. دمشق ٢٠٠ / حوادث ١٧ / ٣ / ٨٩١ ج ٢ / ص ٦٠٢

وابن إياس: «بدائع الزهور في وقائع الدهور» تحقيق محمد مصطفى. ط. بيروت ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م: ٣

/ ٢٣١ والسخاوي: «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» ط. بيروت، دار مكتبة الحياة-لات: ٣ / ١٣٨.

## (٢)

كل ذلك يعود للجزء الذي كان محتلاً من جبل عامل . أعني خط شمال الجليل وخط الساحل . وهو الجزء الأكبر والأكثر أهمية منه . لكنه لا يعرض لشمال الجبل وأعليه المتصلة بجبل لبنان . التي كانت تسمى في ذلك الأوان " جبال صيدا " . وكان مركزها ، من حيث الاعتبار السكاني ، بلدة جزين . التي سيكون لها في مستقبل الأيام من عظيم الشأن في إطلاق النهضة ما سنقف عليه .

ولقد ظلت جزين أرضاً ظاهرة ، لم يمسه احتلال طيلة تلك الفترة التي كان فيها الجزء الأكبر من جبل عامل محتلاً . مع أنها مُحاطة من ثلاث جهاتها بأرض مُحْتَلَّة . كما أنها تقع على خط شمالي جنوبي بين حصني تيرون وأرنون . وهما من الحصون التي بناها الصليبيون على حدود المنطقة المُحتَلَّة . وما ذاك إلا لأنها كانت منطقة وعرة جدباء صعبة المسالك ، لاخير فيها ولا مطمع .

وما من سبب يدعوننا إلى القول على نحو التخصيص في الأصول السكانية لجزين ومنطقتها . بل شأنها في هذا شأن جبل عامل ، وما حدث فيه من طفرة سكانية بسبب الاجتياح الصليبي . مما استوفينا فيه الكلام بقدر الحاجة فيما فات . لكن لجوء قسم من النازحين إلى هذه المنطقة الوعرة الجدباء بالذات لا يمكن أن يكون قد حدث دون سبب خاص . مع أن غيرها متسع وأقرب منالاً . والناس لا ينزلون عادة أرضاً بهذه المثابة إلا أن يضطروا إلى ذلك اضطراراً . ولقد رجحنا فيما سبق أن جبل عامل كان قبل الجائحة الصليبية أرضاً شبه يباب . فلماذا ، إذن ، ترك نزال جزين ومنطقتها كل ذلك المتسع ونزلوا هذا الوعر ؟

بالبحث عن حل لهذا المُشكل ، وقفنا على ما نرى أنه يُشير ، وإن من بعيد ، إلى ما جرى . فاضطر أولئك الناس إلى سكنى ذلك الجذب العسير . مخبوءاً في اسم لبسوه أو ألبسوه . نجده في «نُخبة الدهر» ، حيث يُسمي منطقتهم شوف المياذنة<sup>٦٣</sup> وفي «ذيل الروضتين» حيث يُسميهم هم أنفسهم المياذنة<sup>٦٤</sup> .

٦٣ . ص / ٦٢٧ .

٦٤ . أبو شامة ، عبد الرحمن المقدسي : «ذيل الروضتين» ط . القاهرة ١٩٥٦ : ١٠٣ .

والشوف هو المكان العالي المُشرف على ماحوله . والكلمة من أصل آرامي «الذي يُستدلّ من مشتقاته أن معناه الأصيل الإشراف والتطلع»<sup>٦٥</sup> . نجدها في العامية الشامية . شاف ومشتقاتها ، بمعنى رأى . واسم الشُوف ما يزال علماً على منطقة معروفة من لبنان . وكان في عصر شيخ الربوة (ت : ٧٢٧هـ / ١٣٢٦م) جزءاً من اسم غير مكان : شوف العدسي ، شوف الخيطي ، شوف الخروب ، شوف الشومر ، فضلاً عن شوف المياذنة . ولكلّ من هذه الأسماء مناسبتها . وبعضها واضح . ولا ريب أن " المياذنة " تعني ساكني ذلك الشوف .

والظاهر أن هذه الكلمة من الأسماء التاريخية التي أطلقت على بعض الشيعة في الشام لمناسبة جغرافية أو غيرها . من مثل " الظنين " على الذين كانوا ينزلون شمال جبل لبنان ، في المنطقة المعروفة اليوم بـ " الضنيّة " ، ويُقال أن هذه الكلمة تحريف عن الظنين . و " الجرديين " على شيعة كسروان في الجبل نفسه . و " المتاولة " على شيعة جبل عامل و حلب . وأخيراً " المياذنة " .

والتفسير الوحيد الذي يبدو لنا ، أنها نسبة إلى سهل المأذنة . وهو سهل مشهور بخصوبته ، يرتوي من نبع يحمل الاسم نفسه . قريب من مدينة النبطية في جبل عامل . فإذا صحّ ذلك ، دلّ على أن سكّان جزين كانوا قبلاً ينزلون ذلك السهل . ثم نزحوا عنه منذ زمن غير بعيد بالقياس إلى زمن صدور النص ، لسبب يتصل بالوضع المضطرب الذي نشأ عن الاحتلال الصليبي . بشهادة أن النسبة لم تكن قد نُسيّت في زمن أبي شامة (ت : ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م) . واحتفظوا بها في وطنهم الثاني ، شأن أمثالهم من النازحين . الأمر الذي يقدم لنا تفسيراً مقنعاً ، وفي الغاية من الوضوح ، لماذا رأيناهم في أوائل القرن السابع للهجرة / الثالث عشر للميلاد في تلك المنطقة الوعرة الجذباء .

## ٦- خلاصة الفصل

نخلّص من كل هذا إلى أن جبل عامل رزح تحت الاحتلال الصليبي مائة واثنين وتسعين سنة قمرية عدداً . وقد اتخذنا مقياساً لبدايته الشروع ببناء حصن تبين في السنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٥ م ،

٦٥ . أنيس فريحة : «معجم أسماء المُدن والقري اللبنانية» . ط . بيروت ١٩٩٢ / ١٠٠ .

وفقاً للمؤرخ المعاصر ابن القلانسي<sup>٦٦</sup>. كما اتخذنا مقياساً لانبجائه تحرير صور في السنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م. لأنها آخر ما تحرّر. لكن الحقيقة أن هذا التحديد ليس دقيقاً، إذا قصدنا به كل الجبل. لأن التحرير والاحتلال جاء على مراحل. ثم إن من مناطقه ما تذبذب خلال تلك المدّة بينهما. فبعد أن حرّر صلاح الدين حصون تبنين و هونين وأرنون وما حولها، أثناء السنوات ٥٨٣-٥٨٥هـ / ١١٨٧-١١٨٩م، عاد الكامل فسلمها غنيمة باردة، ومعها كل ما تحرّر من الجبل إلى فريدريك الثاني في السنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م. لتحرّر نهائياً قبيل صور. ومع ذلك فإن ما ذهبنا إليه يبقى مقبولاً إجمالاً. لأن الاحتلال والتحرير مفهومان غير قابلين للتجزئة. وكون قسم من الوطن تحت الاحتلال بمثابة رهن على الباقي.

مهما يكن، أخيراً انجلى الاحتلال وسط آلام كبيرة. ومن المفهوم أن يكون التحرير بداية لمرحلة جديدة من تاريخ الجبل. فيها هو بعد أن غدا عامراً بالناس، وقد كان ذلك من مضاعفات الغزو الصليبي كما عرفنا، قد ارتفع عنه نير الاحتلال. وهذان عاملان جديان في مسار الحياة فيه. لا بد أن يكون لهما أثرهما كما في أي مكان. والكلام على هذه المرحلة لا بد أن يعرض لِمَا كان فيه من نظام سياسي. بوصفه، أعني هذا الكلام، توطئة أساسية. نتقل بعدها إلى الكلام على الحياة العقلية. وهو بُغيتنا في نهاية المطاف.

من ذلك، بل في رأسه، قيام أول سلطنة محلية فيه. حيث صلاح الدين ولّى الأمير حسام الدين بشارة خطّ بانياس، ومنه جبل عامل. وهو حدّث هام جداً في تاريخ الجبل. الذي كان حتى ما قبله مُجرّد تجمّع ظرفي لبشر مغلوبين على أمرهم.

نُشير الآن إلى أن جبل عامل ظلّ يُعرف أيضاً حتى وقت قريب جداً باسم آخر هو "بلاد بشارة". نسبةً إلى الأمير حسام الدين نفسه، وربما أيضاً إلى أخلافه. وهذا الاسم كان الأكثر دوراناً على ألسنة الناس. في حين احتفظت الأديبات بالاسم التاريخي جبل عامل. هكذا علينا أن نضع كلاً من الاسمين في مستواه. سواء من حيث الوسط الاجتماعي الذي يشيع فيه، أم من حيث البنية الفكرية التي ينتمي إليها. فنادرًا مانقع على اسم "بلاد بشارة" في الأديبات. وبالمقابل فإنك لا تسمع إسم جبل عامل في اللغة اليومية. بل كان الاسم المتداول على الألسن "بلاد

<sup>٦٦</sup> «ذيل تاريخ دمشق» / ١٤٩.

بشارة". حتى جرى استيعاب الناس للتقسيمات الإدارية التي اعتمدت بعد وضع الحدود السياسية لدولة لبنان. فصار الاسم الأكثر دوراً الجنوب أو لبنان الجنوبي. وهو الاسم الرسمي. بينما ظلت الأدبيات، خصوصاً التاريخية، مخلصاً للاسم الأكثر عراقة والأثير عند المثقفين جبل عامل، لما يوحى به من أمجاد التاريخ. وقد تحدثنا في الفصل الأول عن ملاحظات إحيائه. المغزى الكبير من هذا التبدل يكمن في الانتقال من جبل عامل إلى "بلاد بشارة". الذي لا ريب أنه حصل في ظل متغيرين هامين:

**أولهما:** المتغير السكاني. الذي انتهى إلى إعمار أرضه. وقد غدا الآن متغيراً تاريخياً.

**ثانيهما:** المتغير السياسي. المتمثل في أول سلطة محلية سياسية قامت على أرضه. ذلك أنه بالنسبة للناس العاديين فإن اسم جبل عامل غدا اسماً مقطوعاً. فقد كل مسوغاته، بعد أن خلف على الأرض قوم لا علاقة لهم بقبيلة عاملة. وبقيام سلطة جديدة من بشارة وبنيه من بعده. وهكذا انتقلوا بكل بساطة إلى الاسم الأصدق تعبيراً عن الواقع السياسي السكاني الجديد. فانتزعوا الاسم من أكثر العناوين وضوحاً، أي من السلطة السياسية الأولى في البلاد.

إذا نحن تأملنا في هذا التبدل، معتبرين أن أسماء الأماكن والبقاع والمعالج الجغرافية عموماً هي من أكثر التسميات ثباتاً. لا تتبدل، إن تبدلت، إلا بتأثير عامل سياسي أو ثقافي قوي، لساعدنا ذلك على تصور النقلة الهائلة التي حدثت لجبل عامل في ظل الحروب الصليبية وتداعياتها. سواء على الصعيد السكاني أم السياسي. الأمر الذي هيأ القاعدة المناسبة للنهضة.